

ساعة وساعة

٣

لقد شهدت عليك الحجلة يا هذا

الدكتور
محمد عمر الحاجي

عبدالله

مكتبي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المکتبي بدمشق .

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢

e-mail: almaktabi@mail.sy

دار المکتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

في إحدى السهرات الجميلة

اتَّفَقَ أَفْرَادُ عَائِلَةِ (أَبِي حَسَنِ) عَلَى زِيَارَةِ
جَدَّتِهِمْ (أُمِّ جَمِيلٍ) ، وَذَلِكَ فِي بَيْتِ عَمِّهِمْ
(أَبِي حُسَيْنٍ).

وَفِي بَدَايَةِ السَّهْرَةِ رَكِبُوا فِي السَّيَّارَةِ ،
وَأَنْطَلَقُوا إِلَى هُنَاكَ ، وَأَثْنَاءَ الطَّرِيقِ رَاحَتِ
الْوَالِدَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ ذِكْرِيَّاتِهَا مَعَ الْجَدَّةِ ،
وَكَيْفَ كَانَتْ فِي صِبَاهَا ، وَكَيْفَ كَانَتْ
تُسَاعِدُ النِّسَاءَ... وَخَاصَّةً الْحَوَامِلَ ،
وَالْأَرَامِلَ وَ... ثُمَّ خَتَمَتْ ذَلِكَ بِقَوْلِهَا: مِنْ هُنَا
نَفْهَمُ السَّرَّ وَرَاءَ الْإِهْتِمَامِ الْكَبِيرِ مِنَ الْأَوْلَادِ ،

وَالْأَحْفَادِ ، وَالْجِيرَانِ ... بِجَدَّتِكُمْ يَا أَوْلَادَ ،
مُصَدِّقُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ
الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ (١).

قَالَ (مُفْتَاظٌ): آه! كَمْ أَنَا بِشَوْقٍ لِجَدَّتِي ،
وَحِكَايَاتِهَا... وَكَمْ أَتَمَنَّى لَوْ أَبْقَى مَعَهَا
سِنَوَاتٍ ، وَسِنَوَاتٍ!؟

قَالَتْ (مَيْسُونُ): وَأَنَا لَمْ أَعْرِفْ حَتَّى الْآنَ
الْمَصَادِرَ ، وَالْمَرَاجِعَ الَّتِي أَخَذْتُ جَدَّتِي مِنْهَا
تِلْكَ الْحِكَايَاتِ الرَّائِعَةَ!؟

وَضِحِكَ الْجَمِيعِ ، ثُمَّ قَالَ (أَبُو الْحَسَنِ):
لَكِنْ يَا مَيْسُونُ جَدَّتُكَ أُمِّيَّةٌ ، لَا تَقْرَأُ
وَلَا تَكْتُبُ! وَلَكِنْ تَعَلَّمْتُ ذَلِكَ مِنْ تَجَارِبِ
الْحَيَاةِ ، وَمِنْ الْاِخْتِلَاطِ مَعَ النَّاسِ...

(١) سورة الرحمن: ٦٠.

... وَكَمْ كَانَتْ الْفَرَحَةُ عَامِرَةً عِنْدَمَا التَّامَ
الشَّمْلُ ، وَالتَّقَى الْأَجْبَةَ... دُمُوعٌ...
وَمُصَافِحَاتٌ... وَقُبَلَاتٌ... وَعِتَابٌ وَ... وَالَّذِي
قَطَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ صَوْتُ (مُمْتَاز) وَهُوَ يَرْجُو
جَدَّتَهُ أَنْ تَحْكِيَ لَهُ حِكَايَةً مِنْ حِكَايَاتِهَا
الْجَمِيلَةِ...!

إِنَّ اللَّهَ يُهْمِلُ... وَلَا يُهْمِلُ !!

ابْتَسَمَتِ الْجَدَّةُ ، وَأَجْلَسَتْ (مُمْتَازاً) فِي
حِضْنِهَا وَقَالَتْ: سَأَحْكِي لَكَ حِكَايَةً وَاقِعِيَّةً ،
حَدَّثْتُ فِي الْمَاضِي ، وَفِيهَا الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ
عَلَى أَنَّ الْحَقَّ لَا يَضِيغُ أَبَدًا ، وَأَنَّ اللَّهَ
سُبْحَانَهُ يُعْطِي الْإِنْسَانَ الْفُرْصَةَ لِيُعِيدَ
الْحُقُوقَ إِلَى أَصْحَابِهَا ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ
لَا يَتْرُكُ ذَلِكَ ، وَلَا يُهْمِلُهُ أَبَدًا:

كَأَن يَأْمَأ مَا كَانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ - وَمَكَثَتِ
الْجَدَّةُ قَلِيلًا - ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَحْكِي الْحِكَايَةَ.. إِلَّا
بَعْدَ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكُمْ يَا أَحْبَابُ الصَّلَاةِ عَلَى
خَيْرِ الْأَنَامِ - وَقَالَ الْجَمِيعُ بِصَوْتٍ عَالٍ:
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!

كَأَن أَحَدَ الْأَفْرَادِ جَالِسًا إِلَى مَائِدَةِ الطَّعَامِ
مَعَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ رُؤَسَاءِ ، وَوُجَهَاءِ إِمَارَتِهِ.

وَكَأَن بَيْنَ هَؤُلَاءِ تَاجِرٌ عَمِلَ فِي الْمَاضِي
لِصًّا ، وَقَاطَعَ طُرُقًا.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ طَلَبَ اللَّصُّ مِنَ الْأَمِيرِ أَنْ
يُسَامِحَهُ عَلَى أَفْعَالِهِ الشَّرِّيرَةِ الْمَاضِيَةِ.

فَسَامِحَهُ الْأَمِيرُ ، وَقَرَّبَهُ مِنْهُ ، وَجَعَلَهُ
مِنْ أَصْحَابِهِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ الْجَمِيعُ يَأْكُلُونَ ،
وَيَتَحَدَّثُونَ؛ إِذْ جَاءَ الْخَدْمُ بِأَفْخَرِ أَنْوَاعِ
الطَّعَامِ ، وَلَمَّا أَذِنَ الْأَمِيرُ بِالْمُبَاشَرَةِ؛ رُفِعَ
الْغِطَاءُ فَإِذَا هِيَ الْحَجَلُ الْمَشْوِيُّ.

تَنَاوَلَ الْأَمِيرُ حَجَلَةً ، وَقَدَّمَهَا لِلتَّاجِرِ ،
فَأَخَذَهَا التَّاجِرُ مِنْهُ ، وَجَعَلَ يَضْحَكُ
وَيُقَهِّقُهُ!! وَتَعَجَّبَ الْحَاضِرُونَ مِنْ تَصَرُّفَاتِ
التَّاجِرِ ، ثُمَّ نَظَرَ الْأَمِيرُ إِلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ: لِمَاذَا
هَذِهِ الضَّحِكَاتُ يَا أَيُّهَا التَّاجِرُ؟!

قَالَ التَّاجِرُ: يَا سَيِّدِي الْأَمِيرُ! لَقَدْ
ذَكَرْتَنِي هَذِهِ الْحَجَلَةُ بِشَيْءٍ أَضْحَكَنِي.

قَالَ الْأَمِيرُ: هَاتِ حَدِّثْنَا عَنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ!

اعْتَدَلَ التَّاجِرُ... ثُمَّ قَالَ: لَمَّا كُنْتُ قَاطِعَ
طَرِيقٍ؛ كُنْتُ مَرَّاً فِي طَرِيقٍ مُقْفَرٍ بَيْنَ

الجِبَالِ ، فَشَاهَدْتُ رَجُلًا وَحِيدًا ، فَدَنَوْتُ
مِنْهُ ، وَسَلَبْتُهُ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ ، ثُمَّ جَرَدْتُهُ
مَنْ مَلَابِسِهِ ، وَتَرَكْتُهُ يَنْصَرِفُ ، فَرَكَّضَ
هَارِبًا .

فَفَكَّرْتُ... وَتَسَاءَلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ التَّقَى
هَذَا الرَّجُلُ بِأَحَدٍ فِي الطَّرِيقِ ، وَاسْتَنْجَدَ بِهِ
عَلَيَّ ، مَاذَا تَكُونُ النَّتِيجَةُ؟!

فَرَكِبْتُ فَرَسِي ، وَتَبِعْتُهُ ، وَقَبَضْتُ عَلَيْهِ
مَرَّةً ثَانِيَةً ، ثُمَّ شَهَرْتُ سَيْفِي عَلَيْهِ ، أَرَدْتُ
قَتْلَهُ ، فَقَالَ الرَّجُلُ شَاكِيًا: يَا هَذَا! مَاذَا
سَتَسْتَفِيدُ مِنْ قَتْلِي؟ وَمَاذَا جَنَيْتُ حَتَّى
تَقْتُلَنِي؟!

لَقَدْ سَلَبْتَنِي جَمِيعَ مَا أَمْلِكُ ، وَأَخَذْتُ
حَتَّى مَلَابِسِي ، فَأَرْجُوكَ دَعْنِي حَيًّا ، فَعِنْدِي

زَوْجَةٌ وَأَوْلَادٌ صِغَارٌ... فَهَلَا تَرَكَتَنِي لِأَسْعَى
عَلَى رِزْقِهِمْ و...؟!

...وَسَكَتَتِ الْجَدَّةُ عَنِ الْكَلَامِ... ثُمَّ قَالَتْ:
وَعَدَا سَأْكُمُ الْحِكَايَةَ...!!

وَقَفَزَ (مُمْتَازٌ) وَ(أَسْعَدُ) وَ(سَوْسُنُ) وَ...
وَقَالُوا: لَا ... نُرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ بَقِيَّةَ الْحِكَايَةِ...
نَرْجُوكِ يَا جَدَّتِي... فَإِنْ كُنْتِ تُحِبِّينَ
أَحْفَادِكَ ، وَأَوْلَادِكَ؛ فَلَا تَتَوَقَّفِي فِي مُنْتَصَفِ
الْحِكَايَةِ !!

ابْتَسَمَتِ الْجَدَّةُ ، وَتَابَعَتِ الْقَوْلَ :

وَلَكِنَّ التَّاجِرَ قَالَ: وَلَمْ أَهْتَمَّ لِكَلَامِ ذَلِكَ
الرَّجُلِ ، وَشَهَرْتُ سَيْفِي مِنْ جَدِيدٍ لِأَقْتُلَهُ ،
فَالْتَفَتَتْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، فَرَأَى حَجَلَةً تَفِرُّ مِنْ
مَكَانٍ قَرِيبٍ ، فَصَاحَ بِهَا قَائِلًا: يَا حَجَلَةُ!!
أَشْهَدِي لِي عِنْدَ اللَّهِ أَنِّي أُقْتَلُ مَظْلُومًا!!

...وَمَرَّةً أُخْرَى ضَحِكَ التَّاجِرُ ثُمَّ قَالَ:

يَا سَيِّدِي الْأَمِيرُ! وَأَنْتَظَرْتُ حَتَّى اخْتَفَتِ
الْحَجَلَةُ وَرَاءَ كَوْمَةٍ مِنَ الْأَحْجَارِ ، ثُمَّ هَوَيْتُ
بِسَيْفِي عَلَى عُنُقِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، فَفَقَّلتُهُ.

... وَاحْمَرَّتْ عَيْنَا الْأَمِيرِ... وَأَنْتَفَخْتَ
أَوْدَاجُهُ^(١) ... وَبَانَ الْغَضَبُ عَلَى وَجْهِهِ... ثُمَّ
التَفَّتْ إِلَى التَّاجِرِ وَسَأَلَتْ: أَهَذَا مَا يُضْحِكُكَ
أَيُّهَا الْأَحْمَقُ؟

قَالَ التَّاجِرُ: نَعَمْ يَا سَيِّدِي! لَقَدْ ذَكَرْتَنِي
هَذِهِ الْحَجَلَةُ الَّتِي قَدَّمْتُمُوهَا لِي بِحِمَاقَةٍ ذَلِكَ
الرَّجُلِ الَّذِي طَلَبَ مِنْ تِلْكَ الْحَجَلَةِ أَنْ تَشْهَدَ ،
وَهَذَا مَا أَضْحَكُنِي حَقًّا..!

(١) الْوَدَجُ: عِرْقٌ فِي الْعُنُقِ يَنْتَفِخُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَهُوَ
عِرْقٌ الْأَخْدَعُ؛ الَّذِي يَقْطَعُهُ الدَّابِخُ ، فَلَا يَبْقَى مَعَهُ
حَيَاةً ، وَهِيَ وَدَجَانُ ، وَأَوْدَاجُ.

...وَاسْتَدْعَى الْأَمِيرُ كَبِيرَ قَضَاتِهِ...
وَكَذَلِكَ حَرَسَهُ ، وَالْمَسْؤُولِينَ عَنِ
الإِعْدَامَاتِ ، وَنَجَوْ ذَكَ ، ثُمَّ قَالَ أَمَامَهُمْ:

لَقَدْ سَامَخْتُ التَّاجِرَ عَلَى السَّرِقَةِ ،
وَالسَّلْبِ ، أَمَا الْقَتْلُ فَلَا مُسَامَحَةَ فِيهِ... ،
وَلَقَدْ شَهِدْتُ عَلَيْكَ الْحَجَلَةَ يَا هَذَا!

ثُمَّ أَمَرَ الْأَمِيرُ الْحَرَسَ ، فَاعْتَقَلُوا
التَّاجِرَ ، وَسَاقُوهُ إِلَى حَبْلِ الْمِشْنَقَةِ ، وَكَانَ
عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ...

تَقَدَّمَتْ (مَيْسُونَ) مِنْ جَدَّتِهَا...
وَقَبَّلَتْهَا... وَشَكَرَ الْأَخْفَاءُ جَدَّتَهُمْ عَلَى تِلْكَ
الْحِكَايَةِ الْمُفِيدَةِ ، بَيْنَمَا كَانَ (أَبُو حَسِينٍ)
يُرْتَلُّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ
عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ الْأَدَبَ

وَبَعْدَ تَنَاوُلِ وَجِبَةِ الْعِشَاءِ... قَالَتْ
الْجَدَّةُ لِلأَوْلَادِ: سَأُحْكِي لَكُمْ حِكَايَةَ مَا قَبَلَ
النُّومَ ، لَكِنْ شَرِيطَةٌ أَنْ تَنْتَبِهُوا إِلَيَّ جَيِّدًا ،
لَأَنَّ فِيهَا مِنْ الْفَوَائِدِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

وَبِالْفِعْلِ ، تَحَلَّقَ الأَوْلَادُ حَوْلَ الكُرْسِيِّ؛
الَّذِي تَجَلَسُ عَلَيْهِ الْجَدَّةُ ، وَأَنْصَتُوا إِلَيْهَا؛
وَهِيَ تَقُولُ:

أَمْرُ (الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ) قَائِدِ
حَرَسِهِ أَنْ يَطُوفَ بِاللَّيْلِ ، فَمَنْ رَأَهُ بَعْدَ
العِشَاءِ سَكْرَانَ ضَرَبَ عُنُقَهُ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ كَانَ قَائِدُ الحَرَسِ يَطُوفُ فِي
مَدِينَةِ بَغْدَادَ وَمَعَهُ الحَرَسُ؛ إِذَا بِهِمْ يَجِدُونَ
ثَلَاثَةَ فَتْيَانٍ يَتَمَائِلُونَ ، وَعَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ

السُّكْرِ ، فَأَمَرَ بِاعْتِقَالِهِمْ .

وَلَمَّا مَثَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ سَأَلَهُمْ: مَنْ أَنْتُمْ
حَتَّى خَالَفْتُمْ أَمْرَ أَمِيرِنَا (الْحَجَّاجِ بْنِ
يُوسُفَ) !؟

وَكَيْفَ تَخْرُجُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ
الْمُتَأَخِّرِ مِنَ اللَّيْلِ ؟
فَقَالَ أَحَدُهُمْ :

أَنَا ابْنُ مَنْ دَانَتْ الرِّقَابُ لَهُ
مَا بَيْنَ مَخْرُومِهَا وَهَاشِمِيهَا
تَأْتِيهِ بِالرَّغَمِ؛ وَهِيَ صَاغِرَةٌ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهَا وَمِنْ دَمِهَا!!
فَأَمْسَكَ عَنْهُ ، وَقَالَ: لَعَلَّهُ مِنْ أَقْرَبَاءِ
الْأَمِيرِ. ثُمَّ قَالَ لِلْآخَرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُونُ؟ فَقَالَ:
أَنَا ابْنُ لِمَنْ لَا تَنْزِلُ الدَّهْرَ قَدْرُهُ
وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمًا فَسَوْفَ تَعُودُ

تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجًا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ
فَمِنْهُمْ قِيَامٌ حَوْلَهَا وَقُعُودٌ!!
فَأَمْسَكَ عَنْهُ ، وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْرَفِ
العَرَبِ ، ثُمَّ قَالَ لِالْآخِرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُونُ؟
فَأَنْشَدَ قَائِلًا:

أَنَا ابْنُ لِمَنْ خَاضَ الصُّفُوفَ بِعِزِّهِ
وَقَوْمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى اسْتَقَامَتْ
وَرِكَابَاهُ لَا يَنْفِكُ رِجَالُهُ مِنْهُمَا
إِذَا الْخَيْلُ فِي يَوْمِ الْكَرْيَةِ وَلَّتْ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ أَيْضًا وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْجَعِ
العَرَبِ ، ثُمَّ أَمَرَ جُنُودَهُ أَنْ يُكْرِموهُمْ حَتَّى
الصَّبَاحِ لِيَنْظُرَ حَالَهُمْ.

فَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِإِحْضَارِهِمْ ،
فَلَمَّا مَثَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ سَأَلَهُمْ:

فَقَالَ الْأَوَّلُ: أَنَا ابْنُ حَجَّامٍ!

وَقَالَ الثَّانِي: وَأَنَا ابْنُ فَوَّالٍ!

وَقَالَ الثَّلَاثُ: وَأَنَا ابْنُ حَائِكٍ!

فَتَعَجَّبَ قَائِدُ الْحَرَسِ مِنْ فَصَاحَتِهِمْ ،
وَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ الْأَدَبَ ،
فَوَاللَّهِ لَوْ لَا فَصَاحَتُهُمْ؛ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ....

ستنامون عندنا الليلة !!

وَحَاوَلَ (أَبُو حَسَنِ) أَنْ يَعُودَ مَعَ أَفْرَادِ
عَائِلَتِهِ إِلَى الْبَيْتِ ، لَكِنَّ الْجَدَّةَ أَصْرَتْ عَلَى
أَنْ يَبْنِيُوا فِي بَيْتِ أَخِيهِ (أَبِي حُسَيْنٍ)...
خَاصَّةً أَنَّ الْأَوْلَادَ مَسْرُورِينَ مَعَ أَوْلَادِ
عَمِّهِمْ... وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ هُوَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ...

قَالَ (مُتَمَتِّزٌ): نَبِيتُ وَلَكِنْ بِشَرَطٍ: أَنْ

تَحْكِي لَنَا جَدَّتِي حِكَايَاتٍ أُخْرَى... ضَحِكَ
الْجَمِيعُ... وَقَامَ الْأَوْلَادُ إِلَى غُرْفَةِ النَّوْمِ...
بَيْنَمَا كَانَ الْكِبَارُ يَتَنَاقَشُونَ فِي بَعْضِ
الْقَضَايَا الَّتِي تَهْمُهُمْ...

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

